الإيمان المجَزّأ
وانتقاء العقائد ورفض التكاليف
- دراسة عقدية نقدية -

“Fragmented Faith,”
the Selectivity of Doctrines,
and the Rejection of Religious Obligations:
A Critical Theological Study

أحمد خالد رشيد العاني
ديوان الوقف السني - دائرة المؤسسات الدينية والخيرية
Ahmad Khalid Rashid Al-ani
Email: abuzaidalani73@gmail.com
9647819599840
Sunni Endowment Office
Department of Religious and Charitable Institutions

الملخص

يتناول هذا البحث ظاهرة «الإيمان المجزأ» بوصفها من أبرز الإشكاليات العقدية التي باتت تميز الخطاب الديني في العصر الحديث، حيث يميل كثير من الأفراد إلى تبنّي الإيمان ببعض العقائد أو الجوانب الدينية التي تتماشى مع أهوائهم الشخصية أو السياق الثقافي المحيط، بينما يرفضون أو يؤولون الجوانب الأخرى التي تتضمن تكاليف أو التزامات شرعية أو غيبية، ويهدف البحث إلى تفكيك هذا النمط من الإيمان، من خلال دراسة بنيته الفكرية والنفسية، ومظاهره العقدية، وأثره على منظومة الاعتقاد الإسلامي المتكامل، بالاستناد إلى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وفهم السلف الصالح، كما يعالج البحث جذور هذه الظاهرة من حيث ارتباطها بالنزعة الفردانية، وفلسفة النسبية، والروحية المعاصرة التي تفصل الدين عن الشريعة، ويستعرض آليات التعامل معها تربويًا وفكريًا.

وقد تم تقسيم البحث إلى مبحثين: الأول: يتناول البنية العقدية لظاهرة الإيمان المجزأ، ويحلل كيف يتم انتقاء العقائد بناء على الذوق أو القبول الثقافي؛ والثاني: يناقش انعكاس هذه الظاهرة على فهم التكاليف الشرعية، مع رصد العوامل المسببة لها، وسبل معالجتها من خلال الخطاب العقدي الشامل. ويخلص البحث إلى أن الإيمان المجزأ يمثل انحرافًا عن المفهوم الإسلامي للإيمان الشامل، ويستدعي مواجهة فكرية وتربوية جادة لإعادة بناء الوعي العقدي في ضوء التحديات المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: الإيمان – العقيدة – الانتقائية – التكاليف الشرعية – الفكر الديني المعاصر

Abstract:

This research explores the phenomenon of "fragmented faith" as one of the most prominent theological challenges shaping contemporary religious discourse. Many individuals today tend to embrace selective elements of religious belief—those that align with their personal preferences or cultural environments—while rejecting or reinterpreting other components that involve moral obligations, metaphysical dimensions, or religious duties. The study aims to deconstruct this pattern of faith by analyzing its intellectual and psychological structure, theological manifestations, and its impact on the integrated framework of Islamic belief, based on the Qur'an, the Sunnah, and the understanding of the early righteous generations. The research also examines the roots of this phenomenon as influenced by individualism, relativism, and the modern spiritual trend that separates religion from Shari'ah. The study is structured in two main chapters: the first analyzes the theological structure of fragmented faith and how beliefs are chosen based on taste or cultural approval; the second investigates how this phenomenon affects the understanding of religious obligations, highlighting its causes and suggesting solutions through comprehensive theological education and discourse. The research concludes that fragmented faith constitutes a deviation from the holistic Islamic concept of Iman, and calls for an intellectual and educational response to rebuild theological awareness in light of modern challenges.

Keywords: Faith – Theology – Selectivism – Religious Duties – Contemporary Religious Thought

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وبعد:

فتشهد الساحة الدينية المعاصرة موجة متصاعدة من ظاهرة «الإيمان المجزأ»، وهي حالة يتّصف بها كثير من الأفراد الذين يعلنون انتماءهم إلى الدين من حيث الاسم أو الهوية الثقافية، ولكنهم يمارسون انتقائية شديدة في الالتزام بعقائده وأوامره؛ فيقبلون العقائد التي توافق أهواءهم أو الثقافة السائدة، ويُقصون أو يؤولون ما يخالف رؤاهم أو يكلفهم مشقة أو التزامًا، وقد تأثر هذا النمط من التدين بعوامل معرفية وفلسفية واجتماعية، من أبرزها: النسبية الفكرية، والعقلانية المفرطة، والفردانية الحديثة، والتأثر بالتيارات العالمية، ويهدف هذا البحث إلى دراسة هذه الموضوع، من حيث بنيتها العقدية، ومآلاتها على الإيمان، ومن حيث موقفها من التكليف الشرعي، وموقعها من العقيدة الإسلامية الكاملة كما وردت في الكتاب والسنة.

وتتمثل مشكلة البحث في: ما هي حقيقة ظاهرة «الإيمان المجزأ» في الفكر الديني المعاصر؟ وما أبعادها العقدية والتكليفية؟ وما مدى اتساقها مع المفهوم الإسلامي للإيمان الشامل؟ وما أسبابها ومآلاتها المعرفية والدينية؟

ويهدف البحث إلى الآتي:

تعريف ظاهرة الإيمان المجزأ وضبط مفاهيمها المعاصرة.

تحليل المظاهر الفكرية لانتقاء العقائد لدى المعاصرين.

الكشف عن البنية المعرفية والنفسية لهذا النمط من التدين.

بيان أثر هذه الظاهرة في فهم العقيدة الإسلامية الكاملة.

تقويم الموقف الإسلامي من رفض التكاليف الشرعية بدعوى «حرية الإيمان».

اقتراح بدائل فكرية وتربوية لمعالجة هذه الظاهرة.

ويعتمد البحث على المنهج التحليلي النقدي، من خلال تفكيك مفاهيم «الإيمان المجزأ»، وتحليل نصوص الفكر الديني المعاصر، ومقارنة ذلك بأصول العقيدة الإسلامية في نصوص الوحي، ومنهج أهل السنة والجماعة، مع الاستعانة بالرصد الاجتماعي والتحليل النفسي المعرفي الحديث.

وقد جعلت البحث في مبحثين، المبحث الأول: البنية العقدية لظاهرة الإيمان المجزأ، وفيه:

المطلب الأول: التعريف المفهومي لظاهرة الإيمان المجزأ، والمطلب الثاني: المظاهر العقدية لانتقاء العقائد، والمطلب الثالث: موقف العقيدة الإسلامية من التجزئة العقدية

وأما المبحث الثاني: الإيمان المجزأ ورفض التكاليف الشرعية، وفيه مطالب: المطلب الأول: رفض التكاليف في ضوء النزعة الفردانية الحديثة، المطلب الثاني: الأسباب الفكرية والنفسية لظاهرة رفض التكاليف، المطلب الثالث: المعالجة العقدية والتربوية لظاهرة الإيمان المجزأ

وتُبين الخاتمة نتائج البحث وتوصياته، ومن أبرزها: خطورة شيوع «الإيمان المجزأ» كظاهرة مائعة تقوّض مفهوم الدين الشامل، والحاجة إلى خطاب عقدي تربوي يواجه هذه التحديات بلغة معرفية ومنهجية رصينة، تراعي متغيرات الزمان، وتحفظ ثوابت الإيمان.

المبحث الأول
البنية العقدية لظاهرة الإيمان المجزأ

المطلب الأول: مفهوم ظاهرة الإيمان المجزأ

يُعدّ الإيمان المجزأ من الإشكالات العقدية الدقيقة التي ظهرت بوصفها انعكاسًا لتحولات كبرى في بنية التفكير الديني عند الإنسان المعاصر، حيث لم تعد العقيدة تُفهم بوصفها منظومة كلية متكاملة، بل صارت تُقارب كحزمة من الاختيارات الفردية، التي يجوز الأخذ ببعضها ورفض بعضها الآخر، لقد نتج عن هذا التحوّل نشوء نمط من الإيمان لا يقوم على التسليم الشامل لكل ما ثبت من العقائد، بل يقوم على الانتقاء من الدين ما يتوافق مع الأهواء أو المزاج الثقافي العام، وهذا النمط من التدين يشكل انحرافًا عن التصور الإسلامي للإيمان، الذي يقوم على القبول الكلي، واليقين الجازم، والإذعان القلبي لما أتى به الشرع، دون تجزئة أو تأويل اعتباطي.

وقد جاء في تعريف الإيمان عند علماء أهل السنة أنه «تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»، وهو تعريف يبرز شمولية الإيمان وتكامله بين المعرفة القلبية، والإقرار الظاهري، والانقياد العملي، ولا يُتصوَّر من خلاله أن يقبل الإنسان بعض ما جاء به الدين ويردّ البعض الآخر ((١))، بل صرح الإمام السنوسي –وهو من أعلام العقيدة الأشعرية– أن الإيمان الحق هو «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، المأخوذ عن دليل شرعي، من غير تردد ولا شك ولا تقليد فاسد»((٢)).

أما مصطلح «الإيمان المجزأ» نفسه، فهو مصطلح حديث النشأة، لم يرد بهذا اللفظ في كتب المتقدمين، إلا أن معناه متداول ضمنيًا في ذمّ التفريق بين العقائد، وذمّ من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه، كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾((٣))، وهي الآية التي اتخذها علماء العقيدة أصلًا في ردّ من يقبل ببعض الغيب أو الأوامر الشرعية ويرفض بعضها، ويُشرعّن ذلك بالثقافة أو الهوى أو التحفظ الشخصي.

---

(١) شرح المقاصد، التفتازاني، دار المعارف النعمانية، بيروت، ج٢/ ص٢٢٦.

(٢) السنوسي، محمد بن يوسف، شرح أم البراهين (العقيدة الكبرى)، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٥م: ص٦٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٥.

وقد ظهر هذا النمط من الإيمان في الفكر الديني المعاصر بصور مختلفة، من أبرزها: من يؤمن بالله تعالى إيمانًا عامًا، لكنه ينكر وجود الشيطان، أو يرفض عقيدة القضاء والقدر بدعوى أنها تتنافى مع حرية الإنسان، أو من يقبل بالأخلاق النبوية ويرفض المعجزات الغيبية، وهذه الصور وإن اختلفت في الدرجة، فإنها تشترك في المبدأ: تجزئة الإيمان وفق المزاج أو المصلحة أو الموروث الثقافي.

ولعل من أبرز المصطلحات المتداولة في توصيف هذه الظاهرة: «الإلحاد الجزئي»، و«الإيمان الثقافي»، و«التدين الانتقائي»، وهي مصطلحات تشير إلى نوع من التعامل النفعي مع الدين، بحيث يُحتفى بالقيم الإنسانية العامة كالسلام، والمحبة، والعدالة، بينما يُقصى البعد الغيبي أو التكليفي أو المفاهيمي المرتبط بمركزية الله في الكون والشرع. وقد لاحظ الإمام الماتريدي – رحمه الله– في عصره مظاهر قريبة من هذا السياق حين أنكر على من يردّ النصوص المتعارضة مع أهوائه أو معتقداته المسبقة، وقال: «إنّ من قبل البعض ورد البعض، فقد اتخذ هواه إلهًا، وليس ذلك بإيمان، بل هو تحكُّم بالهوى، لا إذعان للحق»[(١)].

وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في الخطاب الإعلامي والديني والاجتماعي الحديث، حيث يُروَّج لنمط من الإسلام يُختزل في «قيم السلام»، و«الإيجابية النفسية»، و«الروحانية الوجدانية»، ويُحجَب الحديث عن التكاليف، والأوامر والنواهي، والمفاهيم المركزية للعقيدة كالإيمان بالملائكة، أو اليوم الآخر، أو الشفاعة، أو الحساب؛ ويُلاحظ في بعض منصات التواصل الاجتماعي حضور واسع لفكرة «الإسلام الثقافي»، وهو الإسلام المنزوع من نصوصه ومصادره، والمبني فقط على المزاج العام، بما يتوافق مع ما يسميه البعض «الإيمان بما تشعر أنه حق»، وهذا مما أنكره الإمام الغزالي حين قال: «فليُعلم أن الإيمان لا يُبنى على ما يهواه القلب، بل على ما جاء به الرسول، فإن وافق هواه، فنعمت، وإلا فالنفس أولى بالتسليم لا بالاعتراض»[(٢)].

وقد تنبّه علماء التصوف السني لهذه النزعة حين لاحظوا تمييع بعض الناس للمفاهيم العقدية تحت شعار «الذوق»، فقال الإمام القشيري: «ليس كل ما يقال فيه (أشعر به) يُعدّ دليلاً، فإن الدين ليس بالذوق وحده، بل بالعلم واليقين»[(٣)]، وهذا توجيه مهم، لأن من ينشأ على الذوق المفرط دون علم، يوشك أن يقع في إيمان مجزأ يخلو من الانضباط العقدي.

---

(١) كتاب التوحيد، الماتريدي، أبو منصور، كتاب التوحيد. تحقيق: فتح الله خليف، القاهرة: دار التوحيد للنشر، ١٩٧٠م: ص١١٧.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، أبو حامد، جدة: دار المنهاج، ط١، ٢٠١٢م : ص٨٥.

(٣) الرسالة القشيرية، القشيري، عبد الكريم ، تحقيق: عبد الحليم محمود، بيروت: دار الفكر، د. ط: ص١١٣

إن خطر هذه الظاهرة لا يكمن فقط في نقص الإيمان أو ضعفه، بل في تحوّل البنية العقدية إلى بنية تفكيكية، تُختزل فيها العقيدة إلى عناصر انتقائية منفصلة، تُؤمن بها النفوس لا لأنها حق مطلق، بل لأنها نافعة، أو جميلة، أو مريحة، وهو ما يتعارض مع أصل الدين، الذي وصفه الله بقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[(١)]، وهذا النص يؤكد شمولية الإسلام، ووحدته، وعدم قابليته للتجزئة في الإيمان أو الممارسة.

المطلب الثاني: المظاهر العقدية لانتقاء العقائد

لقد أفرزت ظاهرة «الإيمان المجزأ» مجموعة من التمثلات العقدية المختلّة، التي تتجلّى في أشكال متعددة من الانتقاء والرفض لبعض أركان العقيدة أو مكوناتها الجوهرية، ويعود هذا الاختلال في كثير من الأحيان إلى أسباب معرفية، ونفسية، وثقافية، تؤدي إلى قبول مشروط للدين، لا ينبني على التسليم والإذعان، وإنما على ما يوافق هوى النفس أو العقل الأداتي المعاصر. وفيما يلي أبرز مظاهر هذا الإيمان الانتقائي:

أولًا: الإيمان بالله مع رفض القضاء والقدر

من المظاهر العقدية البارزة لانتقاء العقائد، أن يؤمن الإنسان بوجود الله تعالى إيمانًا مجردًا، ثم يرفض الإيمان بالقضاء والقدر، إما جزئيًا أو كليًا، بدعوى أن هذا الإيمان يتنافى مع الحرية الإنسانية، أو يولّد السلبية والاستسلام، وهذا النمط من الإيمان يقطع الصلة بين الإله الفاعل في الوجود، وبين نظامه في تدبير الكون، ويجعل الإيمان بالله إيمانًا نظريًا عاطفيًا لا يقوم على التصديق الشامل بصفاته وأفعاله، وقد نصّت النصوص الشرعية على أن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالقدر، كما في حديث جبريل المعروف، حين قال النبي r: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره"[(٢)]، وصرّح الإمام النسفي بقوله: «القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لا يجوز إنكاره، ومن أنكره فقد كذّب القرآن، وكفر»[(٣)].

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

(٢) مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٤هـ: كتاب الإيمان، باب مَعْرِفَةِ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَالْقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، ١/ ٢٨ برقم (٨).

(٣) العقائد النسفية، التفتازاني، سعد الدين، شرح العقائد النسفية، تحقيق: عبد الله محمد عمر، القاهرة: دار البصائر، ٢٠١٠م: ص٩٩.

إن رفض القدر يُضعف التصور الإسلامي للتوحيد، إذ أن توحيد الربوبية يتضمن الإيمان بأن الله تعالى هو المتصرف المطلق في خلقه، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ ((١))، وقد عدّ الإمام الماتريدي إنكار القدر من مداخل الزندقة، لأنه يعني نفي الحكمة والتقدير عن أفعال الله، وهذا مخالف لمقتضى ألوهيته((٢)).

ثانيًا: قبول الرحمة ورفض العدل والعقوبة

من المظاهر المتكررة في الفكر الديني المعاصر، التأكيد على صفة الرحمة الإلهية بمعزل عن العدل، ورفض عقيدة العقوبة أو العذاب، سواء في الدنيا أو في الآخرة، وهذا انتقاء واضح، يُنتزع فيه وصف من صفات الله تعالى دون غيره، ويُبنى عليه تصور مشوّه لألوهيته، قائم على التسامح المطلق، والصفح التام، دون شروط أو حساب. ولا شك أن الرحمة من أوسع صفات الله، ولكنها لا تُفهم إلا في ضوء العدل، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ((٣))، وقال أيضًا: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ ((٤)).

وقد أشار الإمام الغزالي إلى خطورة حصر النظر في صفات الرحمة دون غيرها، فقال: «من لم ير في الله إلا الرحمة، فقد غفل عن صفاته الأخرى، فصار كمن يرى الشمس ضوءها دون حرارتها، وليس ذلك بعقل سليم»((٥))، أما الإمام البيضاوي فاعتبر أن الإيمان بأسماء الله وصفاته لا يتم إلا بالإيمان بجميعها على التمام، دون تفضيل بعضها على بعض بحسب الهوى((٦)).

وهذا النمط من الانتقاء يؤدي إلى إضعاف الشعور بالمسؤولية، وإلى تصورات دينية ضبابية، تُجرّد الدين من وظيفة التقويم والتكليف، وتحوّله إلى طمأنينة نفسية بلا ضوابط، وهو ما يصطدم بجوهر الشريعة ومقاصدها.

---

(١) سورة القمر: الآية ٤٩ .

(٢) كتاب التوحيد، الماتريدي: ص١٢٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٤٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٥) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٧٨

(٦) البيضاوي، ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.، ج١/ ص٣٨.

ثالثًا: الإيمان بالجنة دون النار، وبالنبوة دون الغيب

تتجلّى مظاهر الإيمان المجزأ كذلك في من يؤمن بالجنة باعتبارها رمزًا للمكافأة الإلهية، وغاية روحية سامية، لكنه يرفض الإيمان بالنار وعذابها، بدعوى أنها تتعارض مع مفاهيم «الله المحب»، أو مع الرحمة الشاملة. وهذا تصور مشوّه للمعاد، بل هو إخلال بركن من أركان الإيمان بالغيب، وقد قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[(١)] والغيب هنا يشمل الجنة والنار، والبعث والحساب، والعقاب والثواب.

كما أن بعض المعاصرين يتقبلون جانب «الأخلاق» من النبوة، ويرفضون الغيب المتعلق بالإسراء والمعراج، والمعجزات، والملائكة، واللوح المحفوظ، بدعوى أن ذلك من «الخرافات» أو «التراث الميتافيزيقي»، مع أنهم في الوقت نفسه يؤمنون برسالة النبي r بوصفه مصلحًا اجتماعيًا أو حكيمًا أخلاقيًا، وهذه الرؤية تُقصي وظيفة النبوة بوصفها وحيًا من عند الله، وتُحوّلها إلى ظاهرة إنسانية قابلة للتأويل أو الرفض، مما يناقض حقيقة الإيمان كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾[(٢)].

وقد نبّه الإمام فخر الدين الرازي إلى أن الإيمان لا يُجزّأ، فلا يصح أن يُؤخذ بعضه ويُترك بعضه، واعتبر من أنكر الغيبيات الواردة في النصوص الصحيحة متلاعبًا بالدين، إذ قال: "من آمن ببعض الرسل، أو ببعض ما أخبروا به، فقد اتخذ هواه دينًا، وما ذلك بإيمان بل هو هوى مموّه"[(٣)].

رابعًا: التحليل النفسي والاجتماعي لهذه المظاهر

تُعزى هذه الأنماط من الانتقاء العقدي إلى جملة من العوامل النفسية والاجتماعية والفكرية، فمن جهة النفس، قد يهرب الإنسان من التصديق بالعقوبة أو النار لأنها تثير فيه الخوف، أو لأنها تُهدد بنيته النفسية القائمة على الراحة والطمأنينة، فيستجيب للدين استجابة انتقائية دفاعية، كما يسميها علم النفس الديني، ومن جهة الثقافة العامة، فإن السياق الحديث يشجّع على الفردانية، والنسبية، وحرية الاعتقاد بمعناها المطلق، مما يجعل الإيمان عرضة للتكييف الثقافي بحسب أذواق المجتمعات.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط: ج٢/ ص١١٢.

أما من جهة الخطاب الديني، فقد أسهم التركيز على «الرحمة» دون «العدل»، وعلى «الإيجابية» دون «المسؤولية»، في إنتاج نماذج إيمانية مائعة لا تقوم على إدراك التكليف، وهذا ما تنبّه إليه الإمام السهروردي حين قال: «من أخذ من الدين ما يطيب له، وترك ما يثقل عليه، لم يدخل في حظيرة العارفين، بل ظلّ في حيّز المتلاعبين»[(١)].

إن هذه التحليلات تشير إلى أن الإيمان المجزأ ليس مجرد خلل معرفي، بل هو أيضًا خلل في البنية النفسية والذوقية للمتلقي الديني، يتطلب معالجة شاملة تربويًا وإيمانيًا، من خلال إعادة مركزية القرآن، وربط العقيدة بالوعي، وتثبيت منهج التسليم والرضا، الذي هو من جوهر الإيمان الحق.

المطلب الثالث: موقف العقيدة الإسلامية من التجزئة العقدية

لقد تأسس البناء العقدي في الإسلام على أصل شمولية الإيمان ووحدته وتكامل أركانه، بحيث يُعدّ التسليم بجميع ما ثبت من عند الله ورسوله شرطًا لصحة الإيمان وكماله، ولا يقبل في العقيدة ما يُقبل في الفقه من مسائل الخلاف أو التأويل؛ لأن الاعتقاد ينبني على الجزم والتصديق المطلق، لا على الانتقاء أو الاجتزاء أو التردد، ولهذا فإن تجزئة العقيدة، أو الإيمان ببعض مكوناتها دون بعضها الآخر، يمثل انحرافًا جوهريًا عن حقيقة الإسلام كما نص عليها القرآن الكريم، وأجمع عليها الصحابة والتابعون وأهل السنّة قاطبة.

أولًا: القرآن الكريم ومبدأ شمول الإيمان

لقد جاءت آيات الكتاب المجيد مؤكدةً على وجوب الدخول في الدين والدعوة إليه بوصفه منظومة عقدية وتكليفية كاملة، لا تقبل التجزئة أو التبعيض، ومن أبرز النصوص في ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ﴾[(٢)] وهي آيةٌ نزلت ابتداءً في بني إسرائيل الذين انتقوا من أحكام التوراة ما وافق أهواءهم، لكن دلالتها تمتد إلى كل من يتعامل مع وحي الله بمنطق الانتقاء والهوى؛ قال الإمام الرازي: «هذه الآية تدل على أن من فعل ذلك من هذه الأمة فهو مشارك لهم في الوعيد، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٣)].

(١) عوارف المعارف، السهروردي، دار صادر، بيروت: ص٩٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨٥
(٣) التفسير الكبير، الرازي: ج٣/ ص١٩٤.

وفي آية أخرى، يُصرّح القرآن بمبدأ التكامل الإيماني دون تفريق، في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[1] وقد استدل بها الإمام النسفي لإثبات أن الإيمان لا يكون صحيحًا إلا بجمع الأركان كلها دفعةً واحدة، وقال: «من أنكر واحدًا منها، فهو خارج عن ملة الإسلام»[2].

ثانيًا: منهج السلف في الجمع بين أركان الإيمان

لم يكن السلف الصالح من الصحابة والتابعين يتصورون الإيمان إلا باعتباره قبولًا شاملًا للنصوص، وتصديقًا جازمًا بما جاء به الرسول r، سواء في الغيبيات، أو في تفاصيل العقيدة، أو في الأحكام الشرعية، ولم يكن لديهم تقسيم بين «إيمان أساسي» و«إيمان ثانوي»، بل كانوا يرون أن الكفر ببعض العقائد هو نقض للإيمان كله. قال الإمام أبو حنيفة: «الإيمان هو التصديق والإقرار، لا يتبعض، فمن صدق ببعض وكذب ببعض، فهو كافر لا محالة»[3].

كما أن الإمام الأشعري بيّن في كتابه «الإبانة» أن الإيمان الحق هو أن «يُصدق العبد بجميع ما ثبت من عند الله، دون ردّ أو تأويل يخالف الظاهر إذا صحّ النقل فيه»، ورفض بذلك أي مذهب يقبل ببعض الأسماء أو الصفات أو الغيبيات ويترك بعضها[4].

ثالثًا: نقد التجزئة من خلال مفهوم "الإيمان المجمل والمفصل"

إنّ علم العقيدة عند أهل السنّة قد تضمن تمييزًا مهمًا بين نوعين من الإيمان:

الإيمان المجمل: وهو الإيمان العام بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما جاء في حديث جبريل، ويُطلب من العامّة والمبتدئين.

الإيمان المفصل: وهو التصديق التفصيلي بكل ما ثبت من عقائد وأسماء وصفات وأمور غيبية، ويُطلب من المتعلّمين والراسخين.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٦.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التاويل، النسفي، عبد الله بن أحمد، بيروت: دار الكلم الطيب، ط٢، ٢٠٠٤م: ج١/ ص٣٣٤.

(٣) الفقه الأكبر، ينسب لأبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ)، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المطبعة العثمانية، القاهرة، ص٢٤.

(٤) الإبانة عن أصول الديانة، الأشعري، أبو الحسن، الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق: فؤاد سليم. بيروت: مكتبة دار الإرشاد، ١٩٨٥م: ص٩٧.

لكن هذا التمييز لا يُجيز رفض بعض العقائد أو إنكارها بدعوى الاقتصار على الإيمان المجمل؛ بل هو توزيع تعليمي، لا تبرير اجتزائي. وقد نبّه الإمام السنوسي إلى هذا في شرحه للعقيدة الكبرى، حيث قال: «إن الاقتصار على الإجمال جائز للعوام من حيث الاكتفاء، لا من حيث الاعتقاد، فمن عرف شيئًا من التفصيل وجب عليه التصديق به، وإلا فهو كافر به»[(١)].

وبهذا يتبيّن أن التجزئة العقدية ليست تدرجًا في الفهم، بل انحراف في التسليم، وهو ما يخالف منهج العقيدة الأشعرية والماتريدية، التي ترى أن أصل الدين قائم على قبول الغيب بوصفه وحيًا لا يُناقش بعقل الهوى، ولا يُنتقى على أساس المزاج.

رابعًا: الاستدلال بحديث جبريل ومواقف الصحابة

يُعدّ حديث جبريل المشهور – الذي رواه مسلم – معيارًا جامعًا لمكونات الإيمان كما فهمها النبي r ، وبلّغها للصحابة؛ إذ سأل جبريل عليه السلام: «ما الإيمان؟» فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[(٢)] ولم يُجز النبي r أن يُؤمن المرء ببعض هذه الأركان دون بعض، بل جعل جمعها معيارًا لتعريف الإيمان ذاته، وقد قال الإمام الجويني في تعليقه على هذا الحديث: «إن هذا الحديث أصل في بيان أن الإيمان لا يتجزأ، وأن إنكار ركن واحد ينقض أصل الإيمان»[(٣)]. كما أن الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – كانوا يُعلمون الناس الإيمان بشموله، فكانوا إذا أسلم أحدهم علموه الشهادتين، ثم علموه الإيمان بالغيب والجنة والنار والبعث والملائكة والكتب، كما نقل ذلك الإمام القشيري في «الرسالة» عن حال الصحابة في تربية النفوس على الاعتقاد المتكامل[(٤)].

يتّضح من جملة ما سبق أن العقيدة الإسلامية ترفض رفضًا قاطعًا كل صور التبعيض والانتقاء في مسائل الإيمان، وترى في ذلك مخالفة جوهرية لحقيقة التسليم الذي هو أصل التوحيد، ومفتاح النجاة، وشرط القبول. إن الإيمان في الإسلام ليس سلعة تُفصل بحسب الطلب، بل هو بناء معرفي روحي متكامل، يؤخذ كله، أو يُنقض كله، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾[(٥)].

(١) شرح ام البراهين، السنوسي: ص٨١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب مَعْرِفَةِ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَالْقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، ١/ ٢٨ برقم (٨).

(٣) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، الجويني، عبد الملك بن عبد الله، تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المقصود الغوري، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٩م: ص١٢٥.

(٤) الرسالة القشيرية، القشيري، دار الفكر، بيروت، ص١٢٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

المبحث الثاني
دوافع ظاهرة الإيمان المجزأ ورفض التكاليف الشرعية وطرق معالجتها

المطلب الأول: رفض التكاليف في ضوء النزعة الفردانية الحديثة

إن من أبرز المظاهر الفكرية والعملية التي نشأت عن الإيمان المجزأ في السياق الديني المعاصر، ما يُعرف بـ رفض التكاليف الشرعية، وهو مظهر يدل على تحوّل كبير في فهم العلاقة بين الإيمان والعمل، بين التصديق والامتثال. فقد باتت التكاليف في نظر الكثير من المعاصرين أمرًا ثانويًا أو اختياريًا، يخضع لمعيار الراحة النفسية أو ما يُسمّى «الحرية الشخصية»، لا لميزان الأمر الإلهي أو مقتضى العبودية. وتكمن خطورة هذه الظاهرة في كونها تسلخ الإيمان عن جوهره الفعلي، وتُبقيه انطباعًا وجدانيًا لا يُثمر التزامًا ولا يترتب عليه انقياد.

أولًا: مفهوم الحرية الشخصية في فهم التكاليف

لقد رسّخت الحداثة الغربية مفهوم الحرية الشخصية كحق مطلق للفرد في تقرير اختياراته الدينية والسلوكية، دون أن يخضع لسلطة خارجية، بما في ذلك الشريعة أو النص المقدس، ومع تسرب هذا المفهوم إلى الوعي الديني لبعض المسلمين، بدأ يظهر خطاب يربط بين الإيمان بالله، وحرية ممارسة الدين بالشكل الذي «يختاره الفرد»، لا كما يأمر به الله ورسوله؛ فصار يُقال: «أنا مؤمن، لكن لا أُصلي»، أو «أنا أحب الله، لكن لا أقتنع بالحجاب»، أو «أؤمن بالصيام، لكنه لا يناسب نمط حياتي».

وهذا الفهم يُناقض جوهر الإيمان في التصور الإسلامي، القائم على الإذعان والتسليم والانقياد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[1] وقد علّق الإمام الرازي على هذه الآية بقوله: «إن الإيمان يقتضي نفي الإرادة في مخالفة الأمر الإلهي، ومن أثبت لنفسه حرية مطلقة فقد أبطل مقتضى العبودية»[2].

أما الإمام أبو منصور الماتريدي، فقد أكد في «كتاب التوحيد» أن الإيمان يلازم القَبول القلبي للأمر والنهي، ومن آمن بالله ثم جحد التكليف، أو جعله تابعًا لذوقه أو نفعه، فقد

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٢) التفسير الكبير، الرازي: ج٢٥/ ص٢١٠.

خالف مقتضى التصديق[١].

ثانيًا: تأويل العبادات وفق الذوق المعاصر (الصلاة، الحجاب، الصيام)

من أبرز تجليات رفض التكاليف تحت غطاء الإيمان المجزأ، إعادة تأويل العبادات الشرعية الجوهرية، كالصلوات، والحجاب، والصيام، من كونها واجبات إلهية إلى كونها رموزًا اختيارية يُحدد معناها الفرد بحسب تجربته الخاصة. فتُقدَّم الصلاة على أنها «تأمل روحي داخلي» لا التزام جماعي يومي، ويُصور الحجاب على أنه «حرية ثقافية» لا أمر تعبّدي، ويُفسّر الصيام بأنه مجرد تمرين نفسي أو نمط صحي، لا عبادة توقيفية.

وهذا التحوّل من الامتثال الشرعي إلى التأويل الذاتي يُناقض قاعدة «التعبد على مراد الله، لا على مراد النفس»، وهي قاعدة صوفية راسخة، عبّر عنها الإمام القشيري بقوله: «العبادة الحقّة ما كانت وفق الأمر، لا وفق الذوق، فإنّ كثيرًا من الأذواق تهدي إلى النفس، لا إلى الله»[٢].

وقد أشار الإمام الغزالي إلى خطورة إسقاط العقل على النص في مواضع التعبد، فقال: «التكليف ما هو إلا إذعان، ومتى صار محل العقل تأويليًا في أصل التعبد، فسدت العبادة»[٣].

كما أن ترك هذه التكاليف تحت مبرر «عدم الاقتناع»، أو «عدم الراحة النفسية»، هو من جنس ما وصفه الله تعالى في شأن الأمم السابقة، بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٤] حيث عبّر القرآن عن مخالفة الأمر بأنها عصيان واعتداء، ولو لم يصحبها جحود صريح.

ثالثًا: غلبة النزعة النفسية على التكليف الشرعي

في ضوء هيمنة الخطاب النفسي المعاصر، ساد تصورٌ مفاده أن الدين الحقيقي هو ما يوافق الشعور، ويمنح الطمأنينة فقط، وأن كل ما يُحدث كلفة أو مشقة نفسية، فهو خارج عن دائرة «الإيمان الشخصي»، أو مؤجَّل إلى حين «الاستعداد النفسي». وبهذا يتم إخضاع أوامر الله تعالى إلى مزاج النفس البشرية، لا إلى معيار الحق والاتباع.

(١) كتاب التوحيد، الماتريدي: ص١٤٧.

(٢) الرسالة القشيرية، القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ)، تحقيق: عبد الحليم محمود، بيروت: دار الفكر، د. ط: ص١٢٢.

(٣) إحياء علوم الدين، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت٥٠٥هـ). بيروت: دار المعرفة، د. ط: ج١/ ص٥٥.

(٤) سورة البقرة: الآية ٦١.

وقد نبّه الإمام الغزالي إلى هذا المسلك حين فرّق بين دين النفس ودين الله، فقال: «النفس لا ترتضي من الدين إلا ما لا يُتعبها، فإذا عُرض عليها الجهاد، أو الصيام، أو السكوت، أو مخالفة الهوى، نفرت، وهذه علامة عدم التسليم»[(١)].

كما أن السادة الصوفية بيّنوا أن المجاهدة هي عنوان الصدق، لا الارتياح، فقال الجنيد: «السير إلى الله ترك الراحة، لا طلب اللذة، والإيمان ما ثبت في الشدّة، لا ما تلوّن مع الهوى»[(٢)].

وهذا الانجراف نحو نفسنة الدين، يفرّغ العقيدة من محتواها العملي، ويحوّل الإيمان إلى مشاعر عابرة لا تُترجم إلى التزام، في حين أن الإسلام لا يفصل بين العقيدة والتكليف، بل يربط بين الإيمان والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾[(٣)] وقوله: ﴿ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾[(٤)].

يتّضح من هذا العرض أن رفض التكاليف الشرعية بحجة الحرية الشخصية أو الراحة النفسية، يُعدّ من أبرز مظاهر الإيمان المجزأ، وهو انحراف في فهم العلاقة بين العبد وربه، وفي إدراك حقيقة الإسلام الذي بُني على التسليم والانقياد. ومتى غابت مرجعية الوحي، وتقدّمت مرجعية الذوق، فسدت بنية التكليف، وانحرف ميزان الطاعة، وتحوّل الدين إلى ما يُرضي النفس لا ما يُرضي الله.

المطلب الثاني: الأسباب الفكرية والنفسية لظاهرة رفض التكاليف

إنّ ظاهرة رفض التكاليف الشرعية لدى بعض فئات المتدينين المعاصرين، لا تنبع من ضعف إيماني مجرد، بل ترتبط بجملة من العوامل الفكرية والنفسية والسياقية، التي تشكّل خلفيات معرفية ووجدانية تُنتج هذا اللون من التدين الانتقائي، وتتداخل هذه العوامل في بُنيتها المعقدة بين ما هو فلسفي، ثقافي، إعلامي، نفسي، وهويّاتي. وفيما يلي بيان لأهم هذه العوامل:

(١) ميزان العمل، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت٥٠٥هـ)، بيروت: دار المعرفة، د. ط: ص٩١.

(٢) طبقات الصوفية، السلمي، أبو عبد الرحمن، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م: ص٢١٨.

(٣) سورة الكهف: الآية ١٠٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

أولًا: أثر النسبية المعرفية وفلسفة «ما بعد الحقيقة»

لقد مهّدت الفلسفات الغربية المعاصرة، خصوصًا منذ أواخر القرن العشرين، لانتشار ما يُعرف بـ«النسبية المعرفية»، وهي الرؤية التي تنكر وجود حقيقة واحدة مطلقة، وتستبدلها بتعدد الحقائق بحسب الأفراد والثقافات. وقد تعززت هذه الرؤية في عصر ما بعد الحداثة، بما يُعرف بـ«فلسفة ما بعد الحقيقة»، حيث لم يعد الناس يحتكمون في معتقداتهم إلى الدليل والبرهان، بل إلى الانفعال، والانطباع، والشعور الذاتي.

وقد أثّر هذا الانقلاب المعرفي على التلقي العقدي، فصار كثيرون يتعاملون مع النصوص الدينية على أنها تجليات رمزية أو نسبية، لا أوامر قطعية، ولا معايير مُلزمة، ومن هنا نشأ الانحراف عن مبدأ الحق العقدي المطلق الذي يقوم عليه الإسلام، وبدأت التكاليف تُقرأ لا بوصفها أوامر من الخالق، بل بوصفها اقتراحات ثقافية يمكن أن تُقبل أو تُرفض بحسب الذوق الفردي.

وقد ردّ الإمام الرازي على هذه النزعة في زمانه، حيث ظهرت بوادرها في بعض فِرق الباطنية، فقال: «من قال إن النصوص لا تُفهم على وجه واحد، بل لكلٍّ أن يفسّرها بحسب مراده، فقد أبطل النبوة، وجعل الدين تابعًا لأهواء النفوس، لا لوحي الله تعالى»(١).

ثانيًا: الخطاب الروحي الجديد

انتشرت في العقود الأخيرة حركة فكرية روحية تُعرف اختصارًا بـ (الخطاب الروحي الاديني)، وهي نزعة تتبنّى الجانب الروحي من الدين، وترفض المؤسسات الدينية، والشرائع، والعبادات المأمورة؛ يقوم هذا الخطاب على الإيمان بكائن أعلى أو «طاقة كونية»، والاشتغال بالسلام الداخلي، والتأمل، واليوغا، والارتباط بالطبيعة، دون الانضباط بأي تكليف شرعي، وقد تأثر كثير من الشباب المسلمين بهذه النزعة من خلال المنصات الرقمية، ومحتوى التنمية الذاتية الممزوج بالروحانيات المنفصلة عن النص.

وقد حذر الإمام الغزالي من هذه النزعة في صورها الباكرة، حين قال: «الذي يطلب الصفاء الروحي دون السلوك الشرعي كمن يرجو الحصاد بلا زرع، ومن يطلب الذوق قبل الطاعة كمن يطلب النور في الظلمة»(٢).

(١) التفسير الكبير، الرازي، ج٧/ ص٢٤٥.

(٢) إحياء علوم الدين، ج٣/ ص١١٢.

أما الإمام القشيري فكان أكثر دقة حين قال: «الطريق إلى الله لا يُقطع بالأهواء، بل بالاتباع؛ ومن رام الكشف قبل التكاليف، فهو من أهل البدعة لا من أهل الطريقة»[(١)].

ثالثًا: أثر التسويق الديني السطحي في تمييع الأحكام

ساهمت منصات الإعلام الديني، ووسائل التواصل، في صناعة خطاب ديني تسويقي، يسعى إلى اجتذاب الجماهير أكثر من بناء العقيدة. فصار الحديث عن الدين يدور حول «الطمأنينة»، و«السلام»، و«الراحة النفسية»، و«الحياة المتوازنة»، مع تغييب الحديث عن الجهاد، والمجاهدة، والتكليف، والانضباط، والحدود. وتم تصوير الدين كمنتج يُعرض حسب الطلب، ويُقدَّم بلغة عاطفية، لا عقلية أو تربوية، مما رسّخ في وعي المتلقي أن التكاليف الشرعية أمور ثقيلة أو غريبة أو غير ضرورية.

وقد نبه الإمام السهروردي في «عوارف المعارف» إلى أن من يطلب الدين تزيينًا للمجلس، أو زينةً للقول، فهو ممن استهزأ بالشريعة، إذ قال: «من جعل ذكر الله سلوى، ولم يجعل الطاعة سلوكًا، فقد غفل عن جوهر الطريقة»[(٢)].

وهذا التسويق السطحي يقوّي ظاهرة الإيمان التجزيئي، إذ يُغيب مركزية الالتزام الشرعي، ويركّز على الانطباع النفسي، وهو ما يفتح الباب لرفض التكاليف تحت مبررات الراحة أو الحداثة أو «الله لا يحتاج منا شيئًا».

رابعًا: أزمة الهوية الدينية في الجيل الرقمي

يتعرض الجيل الرقمي الجديد، المولود في بيئة العولمة التكنولوجية، إلى ضغوط هوياتية كبرى، نتيجة التقاطع بين الثقافات، والانفتاح غير المنضبط، وتفكيك السلطة الرمزية للنصوص والرموز الدينية. وقد أدّى ذلك إلى بروز أزمة هوية دينية، جعلت الكثير من الشباب يحتفظون بمرجعية اسمية للإسلام، لكنهم يفتقدون الارتباط الوجداني والتكليفي به، ويعيشون حالة من الفصام الديني بين ما يعتقدون نظريًا، وما يلتزمون به عمليًا.

وقد أشار الإمام ابن عطاء الله السكندري إلى هذه الحالة الازدواجية حين قال في «الحكم»: «من علامات موت القلب أن لا يؤلمك تفريطك في الطاعة، ولا يُبكيك بعدك عن الله»[(٣)].

---

(١) الرسالة القشيرية، ص١١٩.

(٢) عوارف المعارف، السهروردي، أبو عبد الله، بيروت: دار صادر، د. ط: ص٧٧.

(٣) الحكم العطائية، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق: أحمد عبده بيروت: دار الكتاب العربي، د. ط: ص٤٢.

إن أزمة الهوية في الجيل الرقمي لا تنفصل عن ضعف التربية العقدية، وغياب الخطاب الروحي المتوازن، الذي يجمع بين المعرفة والإيمان، والذوق والانضباط، والمحبة والخوف، والتصديق والتكليف.

إن هذه الأسباب الفكرية والنفسية تشكل البيئة الحاضنة لظاهرة رفض التكاليف الشرعية في ظل الإيمان المجزأ، ولا يمكن معالجة هذا الخلل إلا من خلال خطاب عقدي تربوي عميق، يُعيد تشكيل الوعي بالإيمان بوصفه التزامًا، ويؤسس لشخصية مؤمنة متكاملة، لا تؤمن من الدين بما يُرضيها، بل ترضى بما يُرضي الله.

المطلب الثالث: المعالجة العقدية والتربوية لظاهرة الإيمان المجزأ

لا تكفي المقاربات الوعظية أو الشعارات الخطابية في مواجهة ظاهرة الإيمان المجزأ، ما لم تُصاحبها معالجة عقدية رصينة وتربية روحية ومعرفية متكاملة، تنقل المتلقي من حالة التلقي الانتقائي إلى حالة التسليم الواعي الشامل، وتقوم هذه المعالجة على أربعة أسس منهجية كبرى: البناء المعرفي، والتربية العقدية، وإصلاح الخطاب الديني، وتفعيل النموذج النبوي.

أولًا: ضرورة ترسيخ الإيمان المجمل كأساس معرفي

إن أول مدخل تربوي لمعالجة الإيمان المجزأ هو ترسيخ الإيمان المجمل في نفوس الناس، لا بوصفه تقليدًا أو جملة محفوظة، بل باعتباره أصلًا معرفيًا جامعًا، يُغرس في مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب، فالإيمان المجمل، كما قرره علماء العقيدة، هو التصديق الجازم بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، مع التسليم بوجوب التصديق بكل ما ثبت عن الله ورسوله، وإن لم يُدرك تفصيله.

وقد أشار الإمام السنوسي إلى أن «الإيمان المجمل أصل في التصور، وهو شرط في صحة العقيدة عند من لا يحيط بالتفصيل، وما لا يُتصور إدراكه، يُكتفى فيه بالتسليم»[(١)]، وهذا التسليم لا يُفهم بوصفه عجزًا، بل ثقة في المصدر، واستسلامًا لحكمة الوحي، وهو ما أكده القرآن بقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[(٢)].

(١) شرح أم البراهين، السنوسي: ص٩١.
(٢) سورة النساء: الآية ٦٥

وإن غرس الإيمان المجمل بهذه الصيغة يُكوّن في النفس المرجعية المطلقة للوحي، ويهيئ المؤمن لقبول تفاصيل الدين، دون انتقاء أو تأويل يُخضعه لهواه أو بيئته.

ثانيًا: التربية العقدية الشاملة وأثرها في مقاومة الانتقائية

من الأخطاء التربوية الشائعة في بعض المناهج المعاصرة، الاقتصار في العقيدة على المعلومات النظرية أو الأسئلة الامتحانية، دون ربط العقيدة بالوجود، والغاية، والسلوك، والتكليف.

وتُسهم هذه المناهج التجزيئية في إنتاج عقل ديني هش، يرى الإيمان تصديقًا منفصلًا عن الحياة، وليس رؤية كونية كاملة. ومن هنا تبرز الحاجة إلى تربية عقدية شاملة، تتكامل فيها المعرفة، والتجربة، والتزكية، والتفكّر، والتسليم.

وقد نبه الإمام الغزالي إلى أهمية هذا النوع من التربية، فقال: «من تعلم العقيدة على وجه الجدل، دون أن تُخالط بشاشة قلبه، لم ينتفع، بل ربما ازداد بها حيرة، أما من رُبّي على التسليم، ثم تأمل، استنارت بصيرته، وزاد يقينه»[(١)].

أما الإمام الماتريدي، فقد شدد على تلازم المعرفة والعمل، فقال: «الإيمان لا يكون إلا بعلم يورث التسليم، والتسليم يثمر الطاعة، وما خلا من الطاعة، فهو دعوى لا حقيقة لها»[(٢)].

وبناء عليه، فإن مناهج العقيدة ينبغي أن تتضمن محاور أساسية:

- الإيمان المجمل والتفصيلي
- الربط بين الغيب والعمل
- مواجهة الشبهات الفكرية
- تحليل أسباب الانتقائية
- تقديم نماذج حية للمؤمن المتكامل

ثالثًا: دور المؤسسات الدينية في إعادة بناء الخطاب العقدي المنهجي

تشكل المؤسسات الدينية والتعليمية والإعلامية القوة الفاعلة في بناء الرؤية الدينية العامة لدى الشعوب، وبالتالي فإن مسؤولية مواجهة الإيمان المجزأ لا تقع على الأفراد فقط، بل على تلك المؤسسات التي تُنتج الخطاب الديني وتوجهه، ومن الواجب أن تتبنى هذه المؤسسات

(١) المنقذ من الضلال، الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق: ج. ج. هورويتز. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م: ص٤٩.

(٢) كتاب التوحيد، الماتريدي: ص١٣٩.

مشروعًا متكاملاً لإعادة تأسيس الخطاب العقدي على منهج أهل السنّة، وفق رؤية عقلية تربوية روحية جامعة.

وينبغي لهذا الخطاب أن يتجنب السطحية والوعظ المجرد، ويتجه نحو تأصيل المفاهيم العقدية الكبرى (كالإيمان، الغيب، النبوة، المصير، التكليف)، بأسلوب معاصر، لا يتنازل عن جوهر العقيدة ولا ينفصل عن واقع الناس؛ كما يجب أن يُنتج الخطاب ردودًا علمية على التيارات الفكرية المعاصرة التي تُنظّر للإيمان الجزئي، أو تحصر الدين في الوظيفة النفسية فقط.

وقد أشار الإمام الجويني إلى أهمية «الخطاب العقلي العقدي» في مواكبة العصور، فقال: «إنما أقام الله الحجة بالرسل، ثم بالعلماء، لتبليغ الحق ورده على المنحرفين، وإلا لاندرست معالم الإيمان في النفوس»[(١)].

رابعًا: النماذج النبوية في غرس الإيمان المتكامل

لم يكن الرسول ﷺ يكتفي بتلقين الناس العقيدة، بل كان يغرسها في وجدانهم عبر المواقف، والمعايشة، والحوار، والتدريب العملي، فكان يغرس الإيمان قولًا وسلوكًا، علمًا وتربية، وكان إذا دعا أحدًا للإسلام، دعاه إلى الإيمان الكامل، ثم علّمه العمل، كما في حديث جبريل المشهور. ولم يكن يقبل أن يُؤمن أحد ببعض الدين ويترك بعضه، بل ربط الإيمان بالأمر والطاعة والانقياد، والإيمان يتطلب اليقين الكامل، لا الانفعال اللحظي، وقد علّق الإمام البيضاوي على هذا التوجيه، فقال: «الإسلام تسليم، والإيمان تصديق، فإذا وُجد التسليم بلا انقياد كامل، لم يصح وصفه بالإيمان الكامل»[(٢)].

وكان النبي ﷺ يُربي الصحابة على الإيمان العملي بالتكليف، لا بالكلام فقط، فيقول: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، حرم دمه وماله، وحسابه على الله»[(٣)]، وهو حديث يربط الإيمان بالتصديق والعمل والتكليف، لا بالشعور والانطباع.

إن معالجة ظاهرة الإيمان المجزأ لا تُختزل في الوعظ أو الرد، بل تستدعي مشروعًا عقديًا تربويًا يقوم على ترسيخ المرجعية، وتعميق المعرفة، وتفعيل القدوة، وإصلاح الخطاب، حتى

(١) الإرشاد، الجويني: ص١٣٣.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ج١/ ص١١٠.

(٣) ()الجامع الصحيح المختصر، (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، اليمامة ، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٢/ ٥٠٧ برقم (١٣٣٥)

يُعيد للإيمان شموله وفاعليته، ويجعل من العقيدة الإسلامية منهجًا كاملاً للحياة، لا مجموعة اختيارات عاطفية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[1] وهذا نداء خالد إلى الإيمان الكامل، والتسليم الشامل، والتكليف المتكامل.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

الخاتمة

بعد استعراض شامل لموضوع «الإيمان المجزأ» من جوانبه المفهومية والعقدية والنفسية، وبعد تحليل أبعاده النظرية والتطبيقية في واقع الفكر الديني المعاصر، يتبيّن أن هذه الظاهرة تمثل أحد أخطر التحديات التي تهدد بنية العقيدة الإسلامية في الوجدان الحديث، فهي لا تقتصر على ضعف التديّن أو فتور الالتزام، بل تنسف أساس الإيمان بوصفه منظومة معرفية شاملة، وتستبدل به رؤية جزئية، انتقائية، تتعامل مع الدين بوصفه خيارًا ثقافيًا مرنًا، لا تكليفًا ربانيًا ملزمًا.

وقد أظهر البحث كيف أن جذور هذه الظاهرة تمتد في تربة الفلسفة النسبية، والنزعة الفردانية، والثقافة النفسية الحديثة، وتغذيها وسائل الإعلام، ومنصات التواصل، والخطاب الديني التسويقي الذي يُجمل الصورة ويُفرغ المضمون، كما كشف عن انحراف هذا النمط من التدين عن المفهوم القرآني للإيمان، الذي يجمع بين التصديق الشامل، والامتثال الكامل، والتكليف العملي.

إن الإيمان المجزأ ليس مجرد خلل جزئي، بل هو تفكيك لبنية الاعتقاد، وتشويه لمعنى التدين، ونسف لمبدأ السمع والطاعة الذي هو من لوازم العبودية. ومواجهته لا تكون بردود مجتزأة، بل بمشروع تربوي، عقدي، فكري، يعيد تشكيل التصورات، ويجعل من العقيدة قلبًا نابضًا للفكر والسلوك معًا.

نتائج البحث:

الإيمان المجزأ هو نمط من التدين يقوم على الانتقاء من العقيدة، وقبول بعض أركان الإيمان دون البعض الآخر، أو قبول العقيدة دون التكاليف المرتبطة بها.

تمثل هذه الظاهرة انحرافًا جوهريًا عن التصور الإسلامي للإيمان، القائم على الشمول والتكامل، كما قررته آيات القرآن وأحاديث السنة وإجماع أهل السنة والجماعة.

تتعدد مظاهر هذه الظاهرة المعاصرة، منها: الإيمان بالله مع إنكار القدر، قبول الرحمة دون العقوبة، الإيمان بالجنة دون النار، أو بالنبوة دون الغيب.

ترجع أسباب هذه الظاهرة إلى النسبية المعرفية، والنزعة النفسية، والخطاب الروحي المعزول عن الشريعة، وأزمة الهوية في المجتمعات الرقمية.

أظهرت الدراسة أن الإسلام لا يقر الإيمان الانتقائي، بل يوجب التصديق الجازم بجميع أركان الإيمان، واتباع الشريعة دون تحكيم للهوى أو المزاج.

أثبت البحث أن المعالجة الفاعلة لهذه الظاهرة تتطلب إصلاحًا عقديًا وتربويًا، يبدأ من ترسيخ الإيمان المجمل، ويمر بإعادة بناء الخطاب الديني، وينتهي بتفعيل النموذج النبوي في التربية.

توصيات البحث:

الاهتمام بالتأسيس العقدي المبكر للأطفال والناشئة، من خلال مناهج تعليمية تُرسّخ الإيمان المجمل، وتربط العقيدة بالتكليف والهوية.

ضرورة إعادة بناء الخطاب العقدي في وسائل الإعلام والدعوة، بحيث يتجاوز الوعظ العاطفي إلى التأصيل الفكري، ويربط بين الإيمان والعمل.

دعم برامج إعداد المعلمين والوعاظ على التربية العقدية الشاملة، التي تراعي تكامل الجوانب المعرفية والنفسية والسلوكية للإيمان.

مواجهة الخطابات المنتشرة في فضاء «الروحانية المنفصلة عن الدين»، عبر تفكيكها بالحجج العقلية والنصوصية، وإبراز تناقضها مع الإسلام.

تشجيع البحوث العلمية المتخصصة في تحليل أشكال التدين المعاصر، وربطها بمصادرها الثقافية والفلسفية، بهدف معالجتها وفق منهج علمي أصيل.

الدعوة إلى تفعيل النموذج النبوي في غرس الإيمان، من خلال القصص، والمواقف، والتجارب الحياتية التي جسدت التوازن بين التصديق والانقياد.

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم.

١. ابن عطاء الله السكندري. الحكم العطائية. تحقيق: أحمد عبده. بيروت: دار الكتاب العربي، د.ط.

٢. ابو حنيفة، الفقه الأكبر، ينسب لأبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ)، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، المطبعة العثمانية، القاهرة،

٣. الأشعري، أبو الحسن. الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق: فؤاد سليم. بيروت: مكتبة دار الإرشاد، ١٩٨٥م.

٤. البخاري، الجامع الصحيح المختصر، (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، اليمامة ، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٥. البيضاوي، ناصر الدين. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.

٦. التفتازاني، سعد الدين. العقائد النسفية. تحقيق: عبد الله محمد عمر. القاهرة: دار البصائر، ٢٠١٠م.

٧. التفتازني، شرح المقاصد، التفتازاني، دار المعارف النعمانية، بيروت.

٨. الجويني، عبد الملك بن عبد الله. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. تحقيق: محمد يوسف موسى وعلي عبد المقصود الغوري. القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٩م.

٩. الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.

١٠. السلمي، أبو عبد الرحمن. طبقات الصوفية. تحقيق: محمد بن رياض الأحمد. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

١١. السنوسي، محمد بن يوسف. الجامع لأصول الإيمان. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٦م.

١٢. السنوسي، محمد بن يوسف. شرح أم البراهين (العقيدة الكبرى). بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٥م.

١٣. السهروردي، أبو عبد الله. عوارف المعارف. بيروت: دار صادر، د.ط.
١٤. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة، د.ط.
١٥. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ). الاقتصاد في الاعتقاد. جدة: دار المنهاج، ط١، ٢٠١٢م.
١٦. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ). المنقذ من الضلال. تحقيق: ج. ج. هورويتز. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م.
١٧. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ). ميزان العمل. بيروت: دار المعرفة، د.ط.
١٨. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي(ت ٥٠٥هـ)، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩. القشيري، عبد الكريم. الرسالة القشيرية. تحقيق: عبد الحليم محمود. بيروت: دار الفكر، د.ط.
٢٠. الماتريدي، أبو منصور. كتاب التوحيد. تحقيق: فتح الله خليف. القاهرة: دار التوحيد للنشر، ١٩٧٠م.
٢١. مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٤هـ.
٢٢. النسفي، عبد الله بن أحمد. مدارك التنزيل وحقائق التأويل. بيروت: دار الكلم الطيب، ط٢، ٤٢٠٠م.